-

آخرُ المساء أحمرٌ. لعلَّهُ برتقاليٌّ قانٍ إذا صوَّبْتَ الرؤيةَ قليلاً، وغَسَلْتَ العينين بندى القصيدة. لا شيء في آخر المساء الكئيب يغريك غير هلالِ الليل على بقايا يوم يتصرّم. في آخر المساء الكثيرُ ممّا يغريك، إنْ أنتَ أحسنتَ وداع الذي مضى، وصالحتَ فيك الذي يتألّم. أنت لا شيء في صهيل هذا الكون، غير ما تُحَبِّرُهُ يداك في غفْلَةٍ منك ومن رتابة عاداتك، حين نداءُ الروح يخاطب الغميس فيكَ، ويتكلم. أنتَ عدمٌ معدومٌ في سِفْر الحياة يُدَوِّنه الفراغُ، وتتلوهُ عليك الكتب. أنت السُّحُبُ حين تركب هَوْدَجَها ولا تُمْطر. وأنتَ تُجْبِر قلبَك المكلومَ على الحبّ، ومن دروس ماضيك أنتَ لا تتعلَّم. لكَ آخرُ المساء كلُّه جسراً كي تَعْبُر إلى بداية يومِك، لحظةَ تَنْسَدِل خيوطُ الليل على هباء النهار، وحين يفيض داخلُك على صمتك.

آخرُ المساء قمرٌ، يُطِل من خلف سحابةٍ شاردة،

ويُضيئه قمرٌ فيك لا تراهُ عينان. قمران في هذا الكون يسبحان؛ واحدٌ يرقد فيك، والثاني يسبح في أمان. وكطفلةٍ، تعبث بشَعر دُميتها، تُمْسِكه بالأصابع، وتتلو على قارئٍ مجهولٍ سيرتَه، وتترك الباقي للعيان. آخرُ المساء أوّلُ القمر، إذا أضربتِ الطبيعةُ عن شذوذها الجنونيّ، واحترمتْ عاداتِ البشر. أوَّل الليلِ ليْلٌ لا يتنازل عن سرِّهِ قبل أن ينضج فيه الذي يكْبر، خفيةً، عن عيون المتلصّصين على شهوتهِ. وليس لنزوتهِ من زمان للتجلّي غير ليلٍ طليقٍ من الزمان. وأنت العنوان الذي لا يُخْطِئُه ليلُك حين يُدَاهم خلوتَك المخملية في اللّامكان.

كَمْ من ليلٍ تَدَثَّر بالليل كي يكون أعتم، أو أبْكَمَ، ممّا يريدُ، وكي لا يفضحه وضوحُ الأشياء في همس عاشقيْن. كم من قَمَرَيْن تناجَيَا أو تنابزا بالبهاء بين ناظريْن لعاشقٍ في تبيُّنِ الفواصلِ تائهينْ. كم من جملتيْن تزاحمتا كي تبوحان بما تَبَطَّن. كم توطَّن من معنى خذلَتْهُ اللغة وفي النفس تشرَّدَ. كم من حزنٍ تمرَّدَ على شَرْطه فامتطى الفراغَ كي يتمدَّد في الهباء. وكم من مساء طال كي يسرق من الليل أوّلَهُ، وأوّلُ

الليل كلُّه إذا لم يُخطئ المريدُ طريقَهُ. . . والطريقةَ. لكنَّ الحقيقةَ خرافةٌ لا يرويها أحدٌ من الخليقةِ، غيباً، وإنْ زَعَم. غير أنها في الليل تتجلى في جسد امرأةٍ جائعٍ للشّعر، وللقليل ممّا يشبع النّهم.

للَّيْلِ ليلُهُ، وليلاَهُ ولآلِئُهُ، وخاتمٌ يمهر الصمت ويُمْضي في العاشقين أحكامَهُ. والَّليْلُ لحظةُ الأبدية البيضاء، خليلُ الموتِ وكاتمُ سرّه، صولجان السلطان في ذروة مجده. الَّليلُ طيِّعٌ لِمَن يهديه نفسَه، وصَعْبٌ على مَن تَعَثَّر في حبّه. الليل وحدَهُ ملكٌ متوَّجٌ في المدى المفتوح، بعيدٌ من الإبهام، وقريبٌ من شعبه. هو لا يطيل الانتظار ليقول ما يبغي أن يقول، ولا يطلب من سكانه غير المثول بين يديْ روايتهِ. المرأةُ تَفْهَمُه أكثر، وتَخْطُب ودّه كي لا ينازعها عليه أحد. وللمرأة طريقتُها في ترويض الليل على إفشاء أسراره. لكن الليل يجحد، ويخفي هزيمته كي لا تفتضح هشاشةُ السواد الثاويَ في صمته.



انتبهتَ إلى الليل، مبكّراً، وأنتَ تفكّ لُغْز التغيُّر السريع في مزاج الطبيعة. تذوقتَ طعمه بين ذراعين مفتوحتين لجدَّةٍ تطيب الإقامةُ بين كلماتها. كنتَ تريدُه

أطول كي يمتد حبْلُ الحكاية اللذيذ. وكنتَ تريدُه أقصر إذا نام عنك الآخرون، وتناهبتِ الكوابيسُ رأسَك الصغير. تعشقُه وتخافُه، كالبحر الكبير يرسل أمواجه، ويحمل الخيال إلى آخر المستحيل. لم تفهم لِمَ ينام الناس باكراً كالدجاج، ويبدأون صباحهم مع صياح الديكة! لِمَ يستعجلون نهارهم وغبارهم، فيمضون إلى خرافات اليوميّ؟ لو تأخّروا في الرقاد قليلاً لَشَرِبوا من نبيد الليل جرعتين، ولكان النهار أجمل. أَمِنَ العدل اختصار الليل؟ فليقتسموا اليوم بالقسطاس حتى تصدّقهم وتؤدّي واجب الاحترام. وهذا الليل الشتويّ، الممتدّ فيك كرنين حروف الأبجدية في صوت المؤذّن، مَن يعلّقه على غصن الهوى ويغنّيه موّالاً؟ ولقد كان محالاً أن يفهموك ويَدَعُوك تَبْني، بمزاجك، عُشّ خيالك الطريّ في شتاء تشتهيه ويشتهي الليل.

سيّدُ الفصول الشتاءُ؛ الليلُ فيه أطول، وزيارة النهار قصيرةٌ، والضوءُ شاحبٌ، والشمس تضحك وتَعْبِس في خِمار. يَلِذّ لكَ الشتاءُ، كلُّ شيءٍ فيه يفتح نوافذ القلب على الهواء: القرفصاء أمام الكانون، التدفّؤ بالمجمرة، تذوُّق الكسل الصباحيّ، إطلاق الساقين للريح. في الشتاءِ، حِضن الجدَّةِ أدفأ،

والقرآن سريع الحفظ، ولك بعد ذلك أن تستريح حينَ ترتّل حكايات الليل على مسمعك. أنت البطل، وأنت المديح في جملتين تسألان الجدّةَ المزيد، وتُغَلِّقَان على الانتباه طريق الهروب.

يحيّرُك صمتُ الليل ويُرهِبك، لكنه عن فراغ اليديْن والعينين يعوِّضك؛ يُمَلّكك الدنيا ويتوِّجُك، ويُبْصرك الذي لا يُبْصِرُهُ سواك: فَرَساً تحمل فارسها إلى البعيد، ونَقْعُ حوافرها يطلق في الهواء بَخُور الرجولة، فراشةً تثقب سقفاً من الآجُرِّ، وتُرْسل في العينين شهوةَ التحليق، أيَّ شيءٍ في المدى لا يُرَى ولا يُسْمَع أو يُمْنَع من نزوات الطفولة. الليل وحدهُ، على التحقيق، يفيض جمالاً عن أناقة الحروف، ويشيّع اللغة إلى مهجعها كي ترتاح من عناء المستحيل. الليل أبْهى من صولجان جدّك، والليلُ أشهى من بقاياك في بيتِ شِعْرٍ متوحِّلٍ في بحر طويل.

*

في الليل طوَّرْتَ مواهبك، وبِتَّ تَعْرِف أصول اللعبة أكثر؛ يكفيك بعضُ وقتٍ وصمتٍ كي تَهَبَ الغموض وضوحَهُ الضروريّ، وكي تتفنَّن في طَرْد المتلبس كما تطردُ قريبَةُ الجارةِ الأرواحَ الشريرة. كلُّ

شيءٍ في الليل أوضحُ رغم حلكته الجهيرة؛ درسُ المعلّم، مأساة البطل في الحكاية، تلألؤُ النجمة، انكسار القصيدة على معنًى يضيع في قيلولة الظهيرة. لو عقدتَ صفقةً مع السؤال، الذي يكبر فيك خفيَةً، حتى آخر الليل لهزمْتَه، أو لَصَحِبْتَه إلى حيث تَكُونا نِدَّيْن. كلٌّ منكما يريدُ آخَرَهُ؛ أنتَ كي تتمرّن على إخراج البداهة من خصام الضدَّيْن، وهْوَ كي يدقّق في معدَّل الانتباه عند شعبه.

في الليل يعلو فيك الضجيجُ السريُّ، وأنت تستجوب شهود الماضي للإفادة بما كانْ، في زمن ولَّى ولم يترك غير الحِبْر شاهداً عليه. الليل مئذنةٌ للشكاية من عبثٍ مجهولِ السلالةِ، يصحبُك في الغرفة والحمام وبين الدفاتر، ويوقظ في السكون الجَمْر. الليلُ محكمةٌ للكتابة، وأنت موزَّع بين لائحة الاتهام والقاضي، وقرينةُ البراءةِ تائهةٌ بين الشعر والنثر. وتجرِّب أن تدقِّق في غامض الكلام، ولا يُسْعفُك الدليلُ. وتجرِّب أن تكون أنت الدليلَ، فتستعجل المؤجَّلَ، وتدعو الغياب إلى إقامةٍ مفتوحةٍ في ضيافة اللغة. لا بدَّ للبراءة من ضدِّها حتى تكون، كي يفوح منها عطرُ العُذْريةِ الخَبِيء. وضدُّها فيك يقيم، بين الأصابع يتسرَّب باحثاً عن طريدةٍ ضاعت

في الفيافي، أو بين القوافي. وتسلِّم أن الماضي أخرسٌ لا يتكلمُ، لكن الأحفاد يُعيرونه اللسان لئلّا يكون الشرفُ مصاباً بالعِيِّ، فَيُهْدَمُ. وتُعَلِّمُ نفسك ما تَعَلَّم الذين قبلك: أن تبني لأجدادك عرشاً فوق أسنَّةِ الحروف، وتَصُفَّ المديح لهم على طبقٍ من ورق. وكرائحة الحَبَق، في صباحٍ صحْوٍ، يداهمُك الماضي ويملأ فراغات صدْرٍ تركتْها السجائرُ هبةً لَكْ، كي تُعَمِّرها بما شاء؛ بالحبِّ إن أردْتَ، أو بما ملكتْ يمينُك من الكلام.

كنتَ لا تَأْبَهُ لما سوف يمضي سريعاً، ويمشي على جثمان أَمْسِك. كنتُ تلهو بلعبة النسيان، وتقلِّب الكلام على أَلِفِ المضارِع، وسينِ غدٍ توشِك أن تَرْمُقَه. ولم تنتبه، إلّا متأخراً، لقدرة الموتى على القيامة، والإقامة، وترجيع صدى أجراسٍ قديمةٍ قرعوها. وبَحَثْتَ عن السلامة من رتابة التاريخ وكلْكَلِهِ، وضِقْتَ بالصدى يتردد في أرجاء الذاكرة. أَأَنْتَ تخشى الزمان فيك، أم تبغِي صُنع زمانك؟ موزَّعاً بين الشهوتيْن كنتَ يوماً، ثم سلَّمْتَ بأحكام الصدفة، وبقدرة شريعةِ المعنى على حمْل الأشياء على الأسماء. لو خيّروك، لاخْتَرْتَ غَدَكَ وأعْرَضْتَ عن الحفْر في طبقات الأمسْ، لكنك مصابٌ بالليل؛

والليْلُ لا يطيب بغير عِشْرَة القدامى. . . والهمس.

لا بياضَ في الليل كي يفضح حُلْكَتَه، لكن الماضي يدلُّ عليه. هل زارك الماضي، يوماً، في أطراف النهار؟ هل أغواك بالإصغاء إلى الوصايا القديمةِ لمملكةٍ أخطأت طريقَها إلى الأبدية؟ ليس في الضوء مكانٌ للحنينِ، وللأنينِ، أو لرياضة الذاكرة على اختصار السنين: في حكمةٍ سريعةٍ كبارقةِ سحابةٍ كاذبة، كنداءٍ وهميٍّ تُلقيه عليك امرأةٌ تختال في مشيةٍ جاذبة. الماضي للّيْلِ وحدهُ، وللنهار النسيانُ، فانْظُرْ أيُّهما لنفسك أقربُ إن كان لا يتّسع فيك الضدّان.

لستَ فارسيّاً قديماً لِيُجنّدك الجدلُ بين الظلمة والنور في حربه، ولا أنتَ من رعيّة الكنيستيْن كي تجادل في الطبيعتيْن؛ أنت من شَعْب القوافي، في الفيافي، ومن أواخر آذارَ المعتدل. تَهَبُ الذي لديك ولا تَمْتَثِلُ لِمَا يشاء الزمان المرتحِلُ. الأسماءُ فيكَ باقيةٌ ما بقيتْ/ رسومُها وليس يبقى غيرُ ما يَصِلُ. كُن جدليّاً كالطبيعة حتى تَأْلَف معنى القمر، والنهارُ يسكن لغير الضوء فيك. كُن جاهزاً للفريضتيْن، ولا تتحزّبْ للحقيقة الواحدة؛ ليس في النهار غموضٌ واضحٌ، ولا في الليل ضوءٌ تبدَّدَ في الغمام، أو في الكلام، أو في ظلامٍ ينسدل. كُن كالشجَرْ؛ يتشبع بالوجبتيْن، ويُرْسل

في القاع الجذور، وفي السامق يُرسِلُ أغصاناً فوضوية، ولهُ وحدهُ أن يحيا، وأن يموت، واقفاً. كنْ طافحاً بحبٍّ يزيد عن حدِّكَ والحاجة، واطلبِ المزيد؛ ففي الليل متَّسَعٌ للسخاء، وللكثير من النَّثر العاطفي، وإن كنتَ لا تريد.

*

آخرُ المساءِ أحمرٌ. لعلَّه برتقاليٌّ قانٍ إذا صوَّبْتَ الرؤيةَ قليلاً، وغسلْتَ العينين بندى القصيدة. ولا شيء في آخر المساء يضنيك غير أن ليلاً تستقبله يفِرُّ منك سريعاً ويمضي، معك، إلى نومه.